القُرآنُ سَبَقَ المواثيقَ الدُّوَليةَ في احْترامِ حُقُوقِ الأنْسانِ

د. محمد عبد الرحمن عريف
معهد جوته
القاهرة - جمهورية مصر العربية

ملخص البحث

يدور البحث في محور مهم يتلخص في:

أن الاسلام وبنصّ القرآن الكريم هو أول من قرر مباديء حقوق الانسان والمباديء الخاصة بها في اكثر من موضع من القرآن.

وقد حاول السيد الباحث أن يعرض لمقاصد الشريعة الاسلاميــة في إعادة صياغة الفكر الانساني وتخليصه من كل الأفكار السيئة والعدوانية التي لاتجلب على المجتمعات والأفراد الا الدمار والقتل مستشهداً بنصوص مباركة من القرآن الكريم والحديث الشريف ثم يعقد مقارنة بينها وبين ما توصل اليه المجتمع البشري من أفكار لتكريس هذه المباديء الانسانية. وقد ختم البحث بخاتمة أدرج فيها اهم ما توصل اليه الباحث من نتائج.

مقدمـــة:

حقوق الإنسان هي أساس الحريـة والعدالة والســـلام، ومن شأن احترام حقوق الإنسان أن يتيح إمكان تنميـة الفرد والمجتمع تنمية كاملة وتمتد جذور تنمية حقوق الإنسان في الصراع من أجل الحرية والمساواة في كل مكان من العالم. ويوجد الأساس الذي تقوم عليه حقوق الإنســـان، مثل احترام حياة الإنسان وكرامته، في أغلبية الديانات والفلسفات. وأن حقوق الإنسان وحرياته الأساسية تمكننا من أن نطور ونستعمل، على نحو كامل، خصالنا الإنسانية وقدراتنا العقلية ومواهبنا وسنّ نظام قانوني معين، إنما هي تتميز بوحدتها وتشابهها، بوصفها الحقوق نفسها التي يجب الاعتراف بها واحترامها وحمايتها، لأنها جوهر ولب كرامة الإنسان.

الإسلام أول من قرر المبادئ الخاصة بحقوق الإنســان إذ سبق جميع المواثيق المعروفة في تأكيده لحقوق الإنسـان في شمول وعمق منذ أكثر من اربعة عشر قرناً، وهذه الحقوق تعد منحة إلهية وليست منحة من ملك أو حاكم أو قراراً من سلطة محلية أو منظمة دولية وانما هي حقوق ملزمة بحكم مصدرها الالهي لا تقبل الحذف ولا النسخ والتعطيل ولا يسمح بالاعتداء عليها ولا يجوز التنازل عنها، وهذا ناتج عن نظرة الإسلام للإنسان إذ تقوم على الاعتراف بالإنسان كما هو على حقيقته وهذا الحق هو اصل حقوقه كلها. وقد أسست الشريعة الإسلامية مرجعية قانونية وشرعية لحقوق الإنسان من خلال نصوص القرآن والسنة النبوية.

إن عملنـا من أجل إقرار مبادئ الإسلام في واقع الحال، هو الشرط الأول لحفظ الكرامة الإنسانية للمسلمين كافة، وللبشريـــة جمعاء. وذلك في إطار من التسامح والتعـــاون والاحترام المتبادل، وفي ضوء الحوار الحضاري بين ثقافات شعوب الأرض وأممها.

مجالات العمل تتشعب وتمتد أمامنا، وميادين الحركـــة تتعدّد وتشمل جميع مرافق الحيـــاة، وينبغي أن نسلك نحو تحقيق أهدافنا نهجًا تكامليًا، تضبطـــه وتتحكم في اتجاهاتـــه قواعد العمل

الإسلامي المشترك ومبادئ التضامن الإسلامي. ويبرز جانب الرحمة والتسامح في مجال حماية الإنسان واحترام آدميته وقت النزاعات المسلحة؛ فقد أوجب الإسلام المعاملة الإنسانية للجرحى والمرضى والأسرى وغير المقاتل. ولقد كان رسول الله ﷺ يعطي أكثر مِمَّا يأخذ، فكانوا جميعًا الأساس في تطبيق الشريعة السمحة بوجهها الأبيض الناصع، وذلك ما أخذت منه القوانين الدولية بعض مقرراتها وأنظمتها، ولكنها اليوم تحارب الإسلام، وتعده نظامًا إرهابيًا متخلفًا، رغم ما يرونه أمام أعينهم، وما عرفوه عن طريق مستشرقيهم وغيرهم، من كون الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامي هو النظام والسبيل الوحيد الذي يضمن لبني البشر العيش بطمأنينة وسلام.

لقد جعلت المبادئ الإسلامية الإنسان سيد نفسه في كنف عبوديته للهّ، فهو مخلوق مكرم، استخلفه الله في الأرض لتعميرها، وليعبد الله بأنواع الطاعات والعبادات التي لا تعد ولا تحصى، فالإنسان المؤمن يعبد الله في كل الأحوال، بعقله وضميره، وبقلبه وجوارحه. ومن عبوديته للهّ، ومن طاعته للذات الإلهية وعبادته لها، يستمد الإنسان إحساسه العميق بالكرامة، وشعوره بالاعتزاز والارتياح والرضا والطمأنينة لفعله الخيرات، ولإقباله على الطاعات.

فنفس الإنسان لدى الإسلام وفي رسالته للإنسانية جمعاء مصونة لا يجوز التعرّض لها بالترويع أو الضرب أو السجن أو الجلد أو المثلة والتشويه حتى في أقسى الظروف وهي الحروب. إنها شريعة الإسلام الغراء التي أرست مبادئ أنسنة الحروب قبل أن يتبناها ما يعرف اليوم بالقانون الدولي الإنساني.

أُحاولُ في هذه الدرَاسةِ أنَّ أَعرض لمقاصد الشريعة الإسلامية بداية من أول تشريعها، وذلك نحو إعادة صياغة الفكر الإنساني وتخليصه من كل الأفكار السيئة والعدوانية، التي لا تجلب على الأفراد والمجتمعات إلا الدمار والقتل، وذلك مساهمة من الشريعة الراقية، في رفع مستوى الفكر الإنساني للإرتقاء

الحضاري الذي يجعل من أفراد المجتمع عبارة عن سلوك منتظم الأجزاء، وصف واحد من خلال جملة من الشعائر الربانية. وتقع مسؤولية الإصلاح والمصالحة في هذا العصر على أهل العقول الراشدة، الذين يغلّبون صوت العقل على صوت المدفع.

لقد جاء الإسلام ليؤكد أصالة الكرامة الإنسانية، وليرسّخ في الإنسان إحساسه بكرامته، وليقوي تمسكه بها، وصونه لها، وذوده عنها، لأنها جوهر إنسانيته، ولبُّ بشريته، وأسُّ ذاتيته. فلقد راعت المبادئ الإسلامية في الإنسان أنه أكرم الخلق أجمعين، وأنه يحمل الأمانة العظمى، وأنه مستخلف عن الله سبحانه وتعالى في الأرض، ليعمرها، وليقيم الموازين بالقسط، وليعبد الله وحده لا يشرك به أحدًا، فكان الإسلام باعثًا للكرامة الإنسانية، وحافظًا لها، بما جاء به من مبادئ سامية تصون للإنسان حرمته، وترعى كرامته، وتنزله المنزلة التي أنزله الله إياها مكرمًا مكفول الحقوق جميعًا.

يأتي ذلك في سياق تكوين الشخصية الإنسانية وتنميتها في ظل المقاصد القرآنية الخالدة، وهي القضايا الحساسة التي تعيشها أمتنا الحبيبة، في ظل الاقتتال والتطاحن. فقضية السلم الاجتماعي، وقضية التعايش السلمي، وقضية قبول الآخر، والإقبال عليه، تتصدر القضايا الأخرى، ولذلك سوف يركز البحث على هذه القضايا، معتمدًا على الرؤية المقاصدية القرآنية.

إشكالية الدراسة:

إنَّ من أهم القضايا التي تعاني منها الأمة الإسلامية في الآونة الأخيرة، هي قضية التوفيق بين الموروث الفقهي، وبين متغيرات الواقع المعاصر، بحيث أصبح لدينا انفصام واضح وفاضح بين التفكير والواقع، مما أحدث تمايزًا واضحًا بين أفراد المجتمع، مما أنتج حالة من الانعزالية والانزواء بين شرائح المجتمع بسبب هذه الترسبات الفكرية.

أهمية الدراسة:

ترمي هذه الدراسة إلى تسليط الأضواء على بيان أن الشريعة صالحة

لكل زمان ومكان، وأن فيها كل الحلول التي تحتاج اليها الأمم والشعوب للحفاظ على الكرامة الإنسانيـــة. ويثير البحث جملة من القضايا الحساسة والشائكة، فيحاول البحث أن يصف الواقع نظريًا، ومحاولة طرح بعض الحلول العمليـــة لتجاوز الأزمة الراهنة على أيدي العقلاء والصلحـــاء. وذلك في محاولـــة جادة وسريعة لترشيد هذه القنوات الفكرية، وتصحيح مسارها، وضبطها، للمحافظة على البناء الصحيح للشخصية الانسانية.

أهداف الدراسة:

تهـدف الدراســـة إلى توضيح أن كليات الشريعـة أشارت وأكدت على حماية حقوق الإنسان، فقد وضعت جملة من الوسائل للمحافظة عليه وعلى كل القضايا الضرورية، التي تكفل له الحياة الكريمـة والسعيدة. وأن الإنسان يتأثر بمحيطـه وواقعه، فعلى المصلحين أن يقوموا بدورهم لترشيد السلوك الإنساني وتقويمـه بمعياريـــة مقاصد الشريعة الإسلامية. وأن ترك الساحة لغير أهلها، أوجدت تيارًا متطرفًا، يستبيح الدماء، ولا يراعي حرمة لمعتقد ولا انسان. فعلى أهل الحل والعقد أن يقوموا بدورهم التربوي والإصلاحي، فلا بد من الرجوع للواقع ومحاولة إعادة الشباب إلى موضعهم.

لقد اكتسب مفهوم حقوق الإنسان Human Rights قبولاً على المستوى الأكاديمي والمستوى السياسي الدولي على حد سواء، فقد حاولت العديد من الأدبيات العربية إضفاء الصبغة الإسلامية على المفهوم، فبرزت كتابات تتحدث عن «حقوق الإنسان في الإسلام»، بل صدر بالفعل عن أحد المؤتمرات الإسلامية الدولية «بيان عالمي لحقوق الإنسان في الإسلام»، واحتفظ بنفس مفردات الميثاق العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة مع محاولة إثبات عدم تعارضه مع الإسلام بعرض الأدلة الشرعية التي تساند هذه الحقوق، وهو ما يجعل الإطار الغربي للمفهوم في التحليل الأخير هو المرجعية.

كرامة أمة من الأمم، هي من كرامة أفرادها وجماعاتها وشعوبها التي تكون نواتها الصلبـــة، فإنه يمكن القول إن

هضم كرامة الفرد يترتب عليه الإضرار بكرامة الجماعة. وتأتي كرامة الإنسان المسلم في اتباعه لدينه، وفي استيعابه لمقاصد شريعته، وأنه كلما عظُم حظه من العمل بما جاء به الإسلام من تعاليم ومبادئ وشريعة، زاد نصيبه من الشعور بالكرامة. ففي المنظور الإسلامي، لا تنفصل الاستقامة والتقوى عن الكرامة والشرف، ينطبق هذا على الفرد، كما ينطبق على الجماعة، سواء بسواء.

مصطلحات الدراسة:

حقوق الإنسان:

تعرف بأنها المعايير الأساسية التي تكفل للناس أن يعيشوا بكرامة العيش كبشر هي تلك الحقوق الأصيلة، وهي أساس الحرية والعدالة والسلام، وإن من شأن احترام حقوق الإنسان أن يتيح إمكان تنمية الفرد والمجتمع تنمية كاملة وتمتد جذور تنمية حقوق الإنسان في الصراع من أجل الحرية والمساواة في كل مكان من العالم. ويوجد الأساس الذي تقوم عليه حقوق الإنسان، مثل احترام حياة الإنسان وكرامته، في أغلبية الديانات والفلسفات.

علم مقاصد القرآن:

يقصد منه الوقوف على المعاني والأغراض الأساسية والموضوعات الرئيسة التي تدور عليها سورة معينة. وقد يُعبِّر المفسرون عن مصطلح (مقاصد السور) بمصطلحات أُخر، مثل: مغزى السورة، أو غرض السورة، أو الوحدة الموضوعية، أو نحو ذلك.

مصطلح التنشئة:

يُقصد به تربية الإنسان ورعايته منذ الصغر. وهو مصطلح قد يدل -على العموم -على معنى التربية، إلا أنه لا يفي تماماً بذلك. ويأتي من أبرز المستخدمين لهذا المصطلح العالم ابن خُلدون في مقدمته الشهيرة.

مصطلح الإصلاح:

الذي يعني تعديل الشيء، وتحسينه، وتقويمه. وهو بذلك مصطلحٌ لا يؤدي المدلول والمعنى الكامل للتربية، وإنما يؤدي جزءًا منه.

حَق الحُرِيّة:

الحرية: ضد العبودية.. والحر: ضد العبد.. وتحرير الرقبة: عتقها من الرق والعبودية.. فالحرية: هي الإباحة التي تمكن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته، في أي ميدان من ميادين الفعل، وبأي لون من ألوان التعبير.

الكَرَامَةِ الإِنسَانِيّةَ:

جاء في لسان العرب أن الكرم نقيض اللؤم ويعني العتق والأصل والصفح والفضل والعظمة والشرف والكريم اسم جامع لكل ما يحمد وصفة من صفات الله وأسمائه وهو الكثير الخير الجواد المعطى الذي لا ينفذ عطاؤه وهو الكريم المطلق، أما الكريم النسبي فهو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل. «والاسم منه كرامة» والرجل له مكارم وينبغي تكريمه واكرامه ويقال: «له علي كرامة أي عزازة واستكرم الشيء: طلبه كريمًا أو وجده كذلك. «ونجد في القرآن الحكيم «ألقي الي كتاب كريم» وأيضا «وقل لهما قولا كريما»، ونجد كذلك: «ان أكرمكم عند الله أتقاكم»، كما جاء في الحديث الشريف: «واتق كرائم أموالهم».

معنى أخلاقي: القيمة الممنوحة الى الشخص الانساني في حد ذاته بمعزل عن طباعه الفيزيائية وموقعه الاجتماعي. لقد اشار (كانط) إلى ضرورة معاملة الشخص كغاية وليس كوسيلة. الكرامة تمنح الانسان قيمة تخص الغاية المطلقة وتختلف عن الغايات النسبية التي تمتلك ثمنا.

معنى نفسي: الوعي الذي يستمده الفرد من قيمته الخاصة لكونه شخصًا انسانيًا. ان الشعور بالكرامة بكل ما فيه من تبطن وفردنة للقيمة يتعارض مع الاحساس بالمجد الذي يرجع الى المرتبة والدرجة. واذا كان المجد هو قيمة تراتبية فإن الكرامة هي قيمة مساواة وتتماهى مع الصورة التي يحملها المرء لنفسه. عندئذ تأخذ الحماسة بالبعض الى درجة التضحية بالنفس من أجل انقاذ كرامته من كل اهانة.

الحقوق الإنسانية لغويًا:

الحق في اللغة هو الشيء الثابت دون ريب، وهو النصيب الواجب سواء كان للفرد ام للجماعة. ويعرَّف الحق بأنه ما قُيم على العدالةِ والإنصافِ ومبادئ الأخلاق. والحق في الشريعة الإسلامية لفظ يشير إلى الله عز وجل وهو اسم من أسمائه الحسني جل شأنه. وفي تحليل علاقة الإسلام بمفهوم حقوق الإنسان، ينبغي أن نعلم أن الإسلام كعقيدة وردت في مصدرين شريفين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وتقوم العقيدة الإسلامية على مبدأ وحدة الجنس البشري. وأن الاختلاف بين البشر سواء أكان في الأرزاق ام في مصادر الدخل أم الأعمار أم الألوان أم الأعراق إنما يهدف إلى إعمار الكون في إطار من التعايش والتعاون والتكامل.

و بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية، نجد أن كرُم فلان كرمًا وكرامة، إذا أعطى بسهولة وجاد (جاد يجود جودًا) فهو كريم. وكرم الشيء عز ونفس، والسحاب جاد بالغيث، والأرض زكا نباتها.

أما الكرامة فمعناها في اللغة الأمر الخارق للعادة غير المقرون بالتحدي. وكرم السحاب جاد بمطره، وكرم المطر كثر ماؤه، وكرّم فلانًا أكرمه، وفلاناً فضله[1]. وبتتبع دلالات هذا اللفظ، نجد أن كرَّم الرجلُ الأمير، إذا احتفى به وعظَّمه، وكرَّم الرجل ضيفه، زاد من الحفاوة به والرعاية، وكرَّم اللهّ وجهه، حفظه مما يستهجن ويخزى منه ونزَّهه، وكرَّم الرجل نفسه عما يُشينها ونزَّهها ورفعها، ومنه قول زهير: ومن لا يكرِّم نفسه لا يكرَّم. والكرامة هي الشرافة، وكرامة النفس ترفعها وتصوّنها، والكرامة كون الشيء عزيزًا، وتكرّم فلان عما يشينه ترفّع وتصوّن، وتكرم الرجل على صاحبه قدم له شيئًا من كرمه دون انتظار مقابل. والكريم هو السخي المعطاء وهو الصفوح السمح[2].

وفي كتاب التعريفات: الكرم هو الإعطاء بسهولة، والكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، والكريم من يوصل النفع بلا غرض، فالكرم هو إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لعوض جلبًا للنفع

أو خلاصًا عن الذم، فليس بكريم[٣].

ويلفت نظرنا في هذا السياق أيضًا، أن من المعاني التي ينطوي عليها الأصل اللغوي للكرامة الزيادة والفضل، والكثرة، والسهولة، واللين، والإعطاء بلا مقابل. وفي كتاب الكليات، رزق كريم، أي كثير، وقول كريم، أي سهل لين، وقد يطلق من كل شيء على أحسنه[٤]. فالتكريم إذن، هو إسباغ كل هذه الفضائل على المكرَّم، وفي ذلك تفضيل أي تفضيل.

واستناداً إلى هذه الخلفية اللغوية، واستلهاماً من المعاني التي ينطوي عليها الأصل اللغوي للكرامة، نتأمل الدلالة القرآنية للكلمة في الكتاب العزيز، وقد ورد في سورتي الإسراء والفجر، فعل كرَّم وأكرم، في السياقين التاليين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٠]، ويدل سياق الآية على أن التكريم هو التفضيل، للترابط والانسجام والتناغم القائم بين بدء الآية وختامها: (ولقد كرَّمنا بني آدم) و(وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)، حيث خلقهم الله في أحسن صورة وأكمل هيئة، وميّزهم بالعقل وبالاستخلاف في الأرض.

ومن التكريم إلى الإكرام في قوله تعالى: ﴿... فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾[سورة الفجر: ١٥] لتتكامل العلاقة بين المعنيين في إطار الدلالة القرآنية الجامعة لأطراف الأمر كلِّه.

تكريم الإنسان في الإسلام:

لقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وسخّر له مافي السموات وما في الأرض، وأرسل رسله وأنبياءه هداةً ومبشرين ومنذرين، يدلّون الناس إلى طريق الحقّ الذي يحقّق لهم السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة. فالوحي الإلهي تكريم للإنسان، لأنه يهدف إلى مافيه الخير لهذا الإنسان، وهو تفضيل له على سائر المخلوقات، فكرامة الإنسان من تكريم الخالق جل جلاله، وهي أصيلةٌ في الطبيعة البشرية، لا تُكتسب لتوافر عناصر أو لتضافر عوامل أو لتواتر أسباب. ولم

يكرّم دينٌ من الأديان بني آدم كما كرّمهم الإسلام، على اختلاف أعراقهم وألوانهم. قال الرسول ﷺ «كلكم لآدم وآدم من تراب» وقال أيضًا «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى»[٥].

لقد عنيت الشريعة الإسلامية -من بين ما عنيت -بالإنسان وحقوقه، حيث ضمت مبادئ وأسسًا تُبنى عليها كرامة الإنسان واحترام آدميته، بما يصلح وقت السلم ووقت الحرب على سواء.

عنيت الشريعة الإسلامية بتحديد وتنظيم العلاقات بين البشر بعضهم مع بعض وكذا حكامًا مع محكومين، وأوضحت ما يلزم اتباعه لحفظ المقاصد التي نزلت من أجلها كافة الشرائع السماوية. ومن أجل ذلك شرع الإسلام حقوقًا للإنسان، ووضع ضمانات لاحترام آدميته، بأن زجر وعاقب على المساس بها ظلما وعدوانا. وقد انطلقت هذه الحقوق من مجموعة من المقومات وأسست الضمانات عليها وتحددت أبعادها في إطارها[٦].

إن الإسلام دين الحياة، وهو بذلك يدعو الإنسان إلى أن يمارس هذه الحياة بالحضور والمساهمة والإنتاج، وإلى أن يكون هذا الحضور متسمًا بالعزّة والكرامة والشرف، مما لايمكن أن يتحقّق إلا بالحرية التي هي في طليعة حقوق الإنسان، والتي تعد في الرؤية الإسلامية، قيمة كبرى، سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة[٧].

إن أعظم تكريم للإنسان، في المنظور الإسلامي، أن هداه اللهّ إلى التوحيد. ومن التوحيد دعوةُ الإسلام الى الكرامة وإلى الحرية. والتوحيد هو تحرير الإنسان من الشرك، ومما يقذفه الشرك في قلب المرء من شعور بالهزيمة والسقوط، سقوط القيمة والهمّة والاعتبار، وسقوط الشخصية المعنوية والكرامة الإنسانية.

ولّما كانت كرامة الإنسان في التوحيد، وكان التوحيد هو تحرير الإنسان من الشرك بكل معانيه ودلالاته، فإن الكرامة الإنسانية تتجلّى أسطع وأقوى مايكون التجلّي في: مقاومة عبادة الأصنام

والأوثان، (بكل أشكالها وأنواعها). ومحاربة الخضوع للأهواء والنزوات، (بجميع أصنافها وأضرابها). ومنع الانسياق لطغيان المال، (على أي وجه من الوجوه). والوقوف ضد استعباد الإنسان للإنسان[٨].

وإذا كنا نلمس في زماننا الراهن اهتمامًا متزايدًا من قِبل المجتمع الدولي باحترام آدمية الإنسان -بغض النظر عن جنسه أو دينه أو لغته -فإن نظرة محللة لأسس وأبعاد هذا الاهتمام يتضح منها أنها لا تخرج عن المبادئ العامة نفسها التي سبق وأرستها الشريعة الإسلامية، وإن كانت هذه الشريعة تحتفظ بكونها أعمق وأشمل من أي تنظيمات وضعية، محلية كانت أو دولية[٩]. وكرم الإسلام الإنسان حين جعل شرف الإنسانية يتمثّل أولًا وآخرًا في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه. والحرية الحقيقية -التي هي جوهر الكرامة الإنسانية -ليست في حقّ الإنسان أن يتدنَّس إذا شاء ويرتفع إذا شاء، بل الحرية أن يخضع لقيود الكمال، وأن يتصرف داخل نطاقها وحده[١٠].

لقد كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة، بسبب تفشي الفساد في مشارق الأرض ومغاربها وفي مختلف مناحي الحياة، فجعل الله سبحانه وتعالى رسالة محمدﷺ، خاتم الأنبياء عامة كذلك، ويندهش عقل الناظر في أحوال البشر حين يرى أن الدين الإسلامي قد جمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الأطلسي وجدار الصين في أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يحدث في تاريخ الأديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، بينما اهتدى إلى معرفته المنصفون. إنها رسالة الإسلام، ذلك الدين الذي «جاء به محمدﷺ، وعَقَلَهُ مَنْ وعاه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حينا من الزمن بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل ولا ميل مع الشيع»[١١]، وقد جاءت رسالة الإسلام دينًا ودنيا، عقيدة وشريعة، عبادة ونظامًا، بل لقد كانت ثورة اجتماعية ليس لها في الشرق أو الغرب أو في التاريخ القديم أو الحديث شبيهٌ[١٢].

المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية:

يتسم المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية بخاصيتي الشمول والعموم، فيكتسب بذلك عمقًا ورحابةً وامتدادًا في الزمان والمكان. ولعل من دقائق المعاني التي ينبغي أن نفطن بها ونتنبه لها، أن آية التكريم من سورة الإسراء جاءت في صيغة العموم، فالآية تشير إلى تكريم الله لبني آدم، وليس لجماعة المؤمنين، أو لفئة دون غيرها من الناس، فالتكريم هنا، هو تكريم مطلق المعنى يشمل البشر كافة، وينسحب هذا المعنى إلى الماضي والحاضر والمستقبل، ويمتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فمن خلال المنظور الإسلامي، فإن الإنسان مُكرم، بصرف النظر عن أصله وفصله، ودينه وعقيدته، ومركزه وقيمته في الهيئة الاجتماعية، إن الله خلقه مكرّمًا، ولا يملك أحدٌ أن يجرده من كرامته التي أودعها في جبلّته وجعلها من فطرته وطبيعته، يستوي في ذلك المسلم الذي يؤمن بالقرآن كتاب الله وبمحمد ابن عبد اللهّ رسول اللهّ ونبيه، وغير المسلم من أهل الأديان الأخرى، أو من لا دين له. فالكرامة البشرية حقٌّ مشاعٌ يتمتع به الجميع من دون استثناء. وتلك ذروة التكريم وقمة التشريف. وتعدّدت مستويات الخطاب الذي يوجّهه الله إلى عباده في القرآن، فمن المؤمنين، إلى أهل الكتاب، إلى معشر المسلمين، إلى بني آدم، وإلى الناس كافّة. ولكل مستوى من الخطاب الإلهي دلالته الموحية والمدى الذي يبلغه معناه.

إن المفهوم الإسلامي للكرامة الإنسانية هو من العمق والشمول بحيث يرتقي إلى قمة عالية من العدل المطلق، ومن المساواة الكاملة، ومن الحق والإنصاف اللذين لا يشوبهما شائبة. وفي الوقت نفسه، فإن هذا المفهوم ينسجم تمامًا مع طبيعة الرسالة الإسلامية الموجهة إلى البشرية قاطبة، ذلك أن الإسلام دين إنساني الدعوة عالمي الرسالة، وهو الرسالة الخاتمة من اللهّ سبحانه وتعالى إلى الناس كافّة، إلى أن تقوم الساعة.

لقد قامت مبادئ الإسلام وتعاليمه وقيمه كلُّها على احترام الكرامة الإنسانية وصونها وحفظها، وعلى تعميق الشعور

الإنساني بهذه الكرامة. وما دامت الرسالة الإسلامية تتغيّا في المقام الأول، سعادة الإنسان وصلاحه، وتبتغي جلب المنفعة له ودرء المفسدة عنه، فإن هذه المقاصد الشريفة هي منتهى التكريم للإنسان، بكل الدلالات الأخلاقية والمعاني القانونية للتكريم. والإسلام في إحاطته للكرامة الإنسانية بهذا السياج المانع من كل الآفات والأضرار التي يمكن أن تلحق بالكرامة الإنسانية، يتفوق على جميع القوانين الوضعية والمواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، بما لا مجال للمقارنة.

جاء اهتمام الإسلام بالإنسان واحترام، حاجياته والسعي إلى تحقيقها، من منطق تقدير الإسلام للإنسان فردا أو جماعات، وجاءت عنايةَ الإسلام بالمجتمع الإنساني، وعلاج مشكلاته منذ أن خلق الله آدم في الأرض، وذلك لأنه دين إنساني، جاء بتكريم الإنسان وتحريره، ففيه تتعانق المعاني الروحية والمعاني الإنسانية، وتسيران جنبًا إلى جنب، كما أن الإسلام لا يتصور الإنسان فردًا منعزلًا ومنفصلًا عن أقرانه، بل يتصوره دائمًا في مجتمع يتأثر به ويؤثر فيه. وقد أرسى الإسلام مجموعة من القيم والمقومات الكفيلة باحترامها والعمل وفقا لها -بإبراز مكانة الإنسان في الإسلام سواء في ذلك وقت السلم أم وقت الحرب. ومن تلك القيم والمقومات نذكر:

- **الكرامة الإنسانية:**

فقد رأت الشريعة الإسلامية أن بني الإنسان جميعًا يستحقون الكرامة، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[سورة الإسراء: ٧٠]. وهو ما يوضح أن الإسلام عدّ تكريم الإنسان من دعائمه الأساسية، فأحاطه بعناية خاصة ووضعه موضع التبجيل والإعزاز، حيث خلق الإنسان مكرما في هذا الكون، خلق ليسود الكون ويسيطر عليه، وعُدّ الخليفة في الأرض. قال الله تعالى في محكم آياته ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً

قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾[13] [سورة البقرة: ٣٠-٣٣]. إن هذه الآيات الكريمات تحمل معنى تمييز بنى الإنسان وتكريمهم، فقد فضل الله الإنسان على غيره من خلقه بأن جعله خليفة في الأرض، وسخر له من أجل ذلك كل ما في الكون وجعله تحت إمرته وسيطرته وطوع إرادته.

هذه الكرامة الإنسانية أوجبت الشريعة الإسلامية احترامها لبنى آدم عامة، دون أية تفرقة بينهم، واحترامها ليس بالأمر القاصر على حال الحياة، وإنما يمتد حتى إلى حال الموت، وليس وقت السلم فقط بل في وقت الحرب أيضا. وقد نهى الإسلام عن المثلة بالقتلى والموتى، لأنه منافٍ للتقوى ولإحترام آدمية الإنسان. فعن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يحث في خطبته على الصدقة، وينهي عن المثلة» رواه النسائي، وعن عمران بن حصين قال: «ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة» رواه أحمد[14].

- **المساواة الإنسانية:**

سادت المجتمع الإنساني -ومنه المجتمع العربي -قبل الإسلام العصبية القبلية والجنسية، والتفاخر بالأنساب ومحاولات التمايز الفردي. ومن منطلق التكريم الإلهي للإنسان رفع الإسلام كل امتياز يفرق بين الأجناس البشرية، وقرر أن الجميع مِنْ خلق الله الواحد الأحد، وأنهم جميعا متساوون في الفضل وشرف الاستعداد لبلوغ أعلى درجات الكمال، الذي هيأه الله للنوع الإنساني عموما، على خلاف ما قد تزعمه بعض الأجناس من الاختصاص بمزايا حُرِم منها غيرهم، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لم تبلغ من الشأن بحيث تلحق بهم، لقد عدّ

الإسلام الناس جميعا أمة واحدة يتساوى فيها الجميع لتوحد الأصل، ومهما حاولت العصبيات والأهواء بث التفرقة أو التمايز فالإنسانية تضم الجميع في رحابها[١٥].

إبراز القرآن الكريم الحقوق الإنسانية:

لقد اختصَّ الله -عزَّ وجل -النَّوع الإنساني من بين خلقه بأنْ كرَّمه وفضَّلَه وشرَّفه، فللإنسان شأنٌ ليس لسائر المخلوقات، فقد خلَقَه البارئُ تعالى بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، إكرامًا واحترامًا، وإظهارًا لفضله، واتَّخذ-سبحانه -من هذا الإنسانِ الخليلَ والكليمَ، والوليَّ والخواصَّ والأحبار، وجعله مَعْدِنَ أسراره، ومَحَلَّ حكمته، وموضِعَ مثوبته. وتعكس خلافة الإنسان في الأرض أسْمَى مراتب التَّكريم الإلهي، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]. ولِتَحقيق هذه الخلافة سخَّر الله -عزَّ وجل-للإنسان السَّماوات والأرض وما بينهما، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢-٣٤]. إنَّ تكريم الإنسان في القرآن هو تكريم لِذَاته الإنسانية: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [سورة التغابن: ٣]، وتكريمٌ لِدَوره في إعمار الأرض: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [سورة هود: ٦١]، فهذا التَّكريم هو اسم جامعٌ لكلِّ الخَيْر والشَّرَف والفضائل. ومن إكرام الله للإنسان أنْ أوجَدَه بعدما لم يكن شيئًا مذكورًا، ولا يُعرف له أثر، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [سورة الإنسان: ١]. وزيادةً في تكريم الذَّات الإنسانية فإنَّ الإيمان بالله لا يكون وراثيًّا، كما لا يكون

منَّةً ولا أمرًا مفروضًا، ولكن يكون بفِعْل إرادة فرديَّة حُرَّة، وهداية ربَّانيَّة نورانيَّة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[سورة الكهف: ٢٩]، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦]، ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[سورة النور: ٣٥]. وللتأكيد على الحُرِّية الإنسانيَّة التكريمية تَرِد في القرآن الكريم آياتٌ عديدة تُذَكِّر النبيَّ ﷺ بِحُدوده الدَّعَوية، ومن هذه الآيات: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[سورة النساء: ٨٠]. ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[سورة الأنعام: ١٠٤]. ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[سورة الزمر: ٤١]. ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾[سورة الغاشية: ٢١ -٢٣].

لقد ألغى الشَّارع الحكيم أيَّة وساطة بين الله -عزَّ وجلَّ- وعبْدِه، هذه الوساطة التي تُفْسد التحنُّث والتعبُّد لله، والاعتقاد الجازِمَ به سبحانه، كاتِّخاذ كُفَّار مكَّة الأصنام واسطةً، وقولِهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[سورة الزمر: ٣]، وقد تَحُول بين السَّائل ومُناجيه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[سورة البقرة: ١٨٦].

وعليه تتفرد الأمة الإسلامية بميزة لم تكن لأمة من قبل، وهي خصيصة الوسطية التي ورد وصف الأمة بها فالتوازن هو السنة التي دونها يستحيل أن يكون هناك وجود حقيقي على مستوى الفرد، فالإنسان إذا اختلت التوازنات في ذاته وفي جسمه يشعر بمرض كذلك الطبيعة والطقس والجو إذا اختلت فيها التوازنات يحدث الخلل، وإذا اختل التوازن في العلاقة بين الطبقات في المجتمع، يحدث الصراع والدمار، وإذا اختل التوازن بين العلاقات الدولية تحدث الحروب والصراعات إذن فكرة الوسطية فكرة عميقة وشاملة كما حددها الإسلام

والرؤية الإسلامية[١٦].

إن الإسلام الذي يُتَّهم اليوم بالإرهاب، من قبل البعض، جاء وبكل مفاهيمه ومبادئه ليؤكد على صون وحماية الإنسان وكرامته، على أسس من الحرية والعدالة، فالقرآن الكريم جاء بالأفكار الأساسية لحقوق الإنسان تاركًا أمر التفصيلات والممارسات والتطبيقات للأمة، وفقًا لضوابط شرعية. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[سورة الأنفال: ٧٠]. وهذه دعوة لمعاملة الأسرى بالحسنى والإنسانية، والذي يؤخذ من الأسرى هو حريتهم وحرمانهم من العودة إلى أهليهم ومغفرة الله لهم لا تكون إلا بعد إسلامهم وصلاح عقيدتهم.

لقد جاءت الحقوق الإنسانية في القرآن الكريم واضحة، فحقُّ المساواة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]. وحق الحياة في قوله تعالى ﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾[سورة المائدة: ٣٢]. وحق الملكيَّة في قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [سورة المائدة: ٣٨]. وحق الحُرِّية في قوله سبحانه ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾ [سورة الانسان: ٨]. وقد ورد أن الرسول الكريم كان يطعم بعض الأسرى بيده الشريفة، ترسيخًا منه لقيم ومبادئ الإسلام العظيم، في معاملة الأسرى، وفي الحديث الشريف (أستوصوا بالأسرى خيرًا). وانظروا

ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوم رأى أسرى يهود بني قريضة موقوفين في العراء وفي حر الصحراء (لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح، قيلوهم حتى يبردوا) وهذه اشارة لضرورة تأمين ظروف أسر تناسب إنسانية الأسير، كما إنه دعوة إلى عدم جواز تعذيب الأسير لانتزاع معلومات واعترافات، كما إنها دعوة إلى تأمين ملبس وكسوة تقي الأسير حر الصيف وبرد الشتاء.

ولا يجوز التفرقة بين الأُسَرِ لما تقوم عليه العقيدة الإسلامية على مبدأ وحده الجنس البشري. وأن الاختلاف بين البشر سواء في الأرزاق أو مصادر الدخل أو الأعمار أو الألوان أو الأعراق إنما يهدف إلى إعمار الكون في إطار من التعايش والتعاون والتكامل، ويؤكد الإسلام على الحرية التامة للعقيدة. ويتضح ذالك وضوح الشمس في الظهيرة في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

أسبقية الإسلام للقوانيين والمواثيق الحديثة:

لقد تطوّر الفكر البشري عبر العصور وانتهى إلى إقرار مبادئ وقواعد قانونية تنظم الحياة الاجتماعية والسياسية والمدنية في المجتمعات الحديثة. وعلى الرغم من هيمنة النظرة المادية على مجمل هذه القوانين، فإن تأثير التوجيهات الدينية بعضها على البعض الآخر يبدو واضحًا للغاية. وجاء إقرار حقوق الإنسان في العصور الحديثة والاعتراف بها من لدن المجتمع الدولي[١٧].

لقد بُذلت جهود حثيثة لإقرار الحقوق الأساسية للإنسان منذ مئات بل آلاف السنين. ومن هذه الجهود إعلان وثيقة الماجنا كارتا أو العهد الأعظم عام ١٢١٥م، التي منحت حقوقًا للأفراد. وأخضعت ملك إنجلترا لحكم القانون. وأضحت الماجنا كارتا نموذجًا احتذت به كافة الوثائق التي صدرت لاحقًا مثل سان الحقوق الأمريكي الذي صدر عام

١٧٩١م. وقد اقترح بيان الحقوق فكرة إقرار الحقوق العالميـــة غير أنه استثنى، عمليًا، الرقيق ومجموعـــــات أخرى من التمتع بها. فبيان الحقوق لم يكن في حقيقته عالميًا إذ قصر عن التعبير عن حقوق الإنسان كما نفهمها الآن. ومع إطلالة القرن العشرين الميلادي بدأت الشعوب في إنشاء منظمات دولية متعددة، فتكونت في عام ١٩١٩م منظمة العمل الدولية التي ظلت تسعى لإقرار الحقوق الأساسية في جميع أنحاء العالم[١٨].

تبلورت مفاهيم حقوق الإنســـان الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ -١٩٤٥م). فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، كونت الـدول المستقلة منظمة الأمم المتحـدة. وأصدرت هذه المنظمة ميثاقها الذي أصبح واحدًا من أولى وثائق حقوق الإنسان العالمية. وقد نص ميثاق الأمم المتحدة على تعزيز احترام حقوق الإنســـان والحريات الأساسية للناس جميعًا دون تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، ولا تفريق بين الرجال والنساء. ولما خلا الميثاق من قائمة تتناول بالتفصيل حقوق الإنسان فقد أصدرت الأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م، الذي تضمن المبادئ الرئيسية للحقوق المدنية والسياسيـــة والاقتصاديـة والاجتماعية والثقافية والحريات الفردية[١٩].

ولمـا كان الاعتراف بالكرامـــــة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعـدل والسلام في العالم. ولما كان تناسي حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامـة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيـــدة ويتحـرر من الفزع والفاقة. ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حمايـــة حقوق الإنسـان لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمـرد على الاستبداد والظلـــم. ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسيـــة وبكرامـــة الفرد وقـدره وبمـا للرجال والنســـاء من حقوق متساوية وحزمت

أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قدماً وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح. ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها. ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد. فإن الجمعية العامة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم[٢٠].

الخاتمـــــة:

إن استرجاع الكرامة الوافرة للأمة الإسلامية، يكمن في عودتها إلى دينها تستلهم منه أسس التقدم في الحياة. وإذا ترجمنا هذا المبدأ العام إلى لغة العصر، فيمكن لنا أن نقول إن ردّ الاعتبار للعقل الاسلامي حتى يسود ويقود الأمة نحو المستقبل، ينبغي أن يكون عملية جماعية، وجهدًا مشتركًا بين جميع مكوّنات الأمة الإسلامية في إطار التضامن الإسلامي، ومن منطلق الإيمان بأن كرامة الأمة في تقدمها وازدهارها، فهناك شبه إجماع بين مفكري الأمة على أن أبرز السمات الاستراتيجية للعقل الإسلامي المستقبلي هي: التقدم، الإبداع، التجذّر، التمثل، العقلانية، التنظيم والفعالية والاتقان، الحرية والمسؤولية والمشاركة، التكيّف[٢١]. ولن يتم ذلك إلا بخلق الشروط الإنسانية والطبيعية الملائمة للتحول. والعملية ليست يسيرة بكل تأكيد، وهي حصيلة تضافر فعال وتضامن إيجابي لجهود وإسهامات وتدخلات تصدر عن أطراف متباينة[٢٢]. ونحن مدعوون إلى أن نردّ الاعتبار للإنسان في العالم الإسلامي، باحترام حقوقه كاملةً غير منقوصأة، في إطار ما تقضي به وتوجبه المبادئ الإسلامية، وبتوفير سبل العيش الكريم له في كنف الحرية والمسؤولية والشعور بالكرامة، على المستويين الذاتي والموضوعي. وهو

أمر تكفّل به القرآن الكريم قبل انبثاق المواثيق والنظم الوضعية الداعية لذلك بأكثر من الف سنة.

* * * * *

الهوامش:

(١) المعجم الوسيط، المجلد ٢، دار الفكر العربي، بيروت، ص٧٨٤.

(٢) الهادي إلى لغة العرب، المجلد ٤، دار لبنان للطابعة والنشر. ص٣٠

(٣) علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، ١٩٩٠. ص١٩٣.

(٤) الكفوي، معجم المصطلحات والفروق اللغوية، كتاب الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢. ص٧٧٢.

(٥) رواه البخاري ومسلم، من خطبة الوداع.

(٦) إبراهيم محمد العناني، قيم الإسلام وأخلاقيات الحرب والسلام، مجلة التسامح، العدد ٣٧، سنة ٢٠١٢.

(٧) عباس الجراري، الإنسان في الإسلام: ماهيته وحقيقة وجوده، مطبعة الأمنية، الرباط، ١٩٩٨. ص٦٩.

(٨) المصدر السابق، بتصرف، ص ٦٩ -٧٠.

(٩) إبراهيم محمد العناني، التنظيمات الوضعية لحماية الإنسان، القانون الدولي العام، الطبعة الخامسة، دار النهضة العربية، ٢٠٠٥.

(١٠) محمد الغزالي، الجانب العاطفي من الإسلام/ ١٧٥ -٢٩٧، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٩٠.

(١١) الإمام الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٦ه -١٩٧٦م، ص١٤٦ -١٢٩.

(١٢) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، لجنة التعريف بالإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، الكتاب السادس عشر، ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م، ص٤٧.

(١٣) جاء في كتاب أحكام القرآن لابن العربي تعليقا على الآية الأخيرة: أن الأمة قد اتفقت على أن السجود لآدم لم يكن سجود عبادة وإنما كان على أحد وجهين: إما سلام الأعاجم بالتكفي والانحناء والتعظيم، وإما وضعه قبلة كالسجود للكعبة وبيت المقدس وهو الأقوى. أبو بكر محمد بن عبد الله العروف بابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البخاري، القسم الأول، دار إحياء الكتب العربية، ص١٦.

(١٤) محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية، عدد يوليو ١٩٦٤، ص٣١٧.

(١٥) الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، ص١٤٠.

(١٦) محمد بن أحمد الصالح، وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، السكينة، ١١ فبراير، ٢٠١١.

(١٧) لم يكن هذا بالأمر الجديد بالنسبة للمسلمين الذين قام دينهم على مبادئ حقوق الإنسان، وعدَّها من ضرورات الحياة، وليست حقوقًا مجردة. وبالاهتداء إلى حقوق الإنسان واعتمادها أساسًا للقوانين الوضعية، تأصّل المفهوم المادي للكرامة

الإنسانية الذي يستند إلى تقرير المصلحة واعتبارها القاعدة والمرتكز لهذه الكرامة. أنظر عبد العزيز التويجري، الكرامة الإنسانية في ضوء المبادئ الإسلاميّة، رسالة التقريب، العدد٢١، ١٤١٩.

(١٨) https: //ar. wikipedia. org

(١٩) https: //ar. wikipedia. org

(٢٠) من ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

(٢١) فهمي جدعان، الماضي في الحاضر: دراسات في تشكلات ومسالك التجربة الفكرية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧. ص٥٦٣.

(٢٢) نفس المرجع والصفحة.